

بواكير النقد الثقافي في القراءات التأويلية للمقدمة الطللية في الشعر القديم

The Early Stages of Cultural Criticism in the Interpretative Readings of Classical Arabic Poetry

محمد لمين فارسي، المدرسة العليا للأساتذة بالأغواط، الجزائر m.farsi@ens-lagh.dz

تاريخ قبول المقال: 11-11-2025

تاريخ إرسال المقال: 01-08-2025

الملخص:

تُحاول هذه الورقة أن تقف على بواكير النقد الثقافي في الساحة النقدية العربية من خلال القراءات التأويلية الحديثة للمقدمة الطللية في الشعر القديم. ومحاولات الكشف عما يندثر تحت عباءة الألفاظ والجمال. وذلك قبل أن يُعرف النقد الثقافي في الساحة العربية. ويمكن القول إذ ذاك: إنَّ النقد الثقافي لم يكن مولودا غربيا، فكثير من مقولاته إنَّ لم تكن توجد في النقد العربي الحديث، فإنَّها لا تتعارض معه. **الكلمات المفتاحية:** النقد الثقافي، المقدمة الطللية، القراءات التأويلية، النقاد المحدثون.

Abstract:

This paper attempts to stand on the early moments of cultural criticism in the Arab monetary arena, through the modern interpretive readings of the epitome introduction to classical arabic poetry. And attempts to reveal what is going on under the words and sentences, This was before cultural criticism was known in the Arab arena. It can be said that cultural criticism was not a strange birth, and many of its sayings, if not found in modern Arab criticism, do not contradict it.

Key words: Cultural Criticism; Deploing stanza; Hermeneutic Reading; Modern critics.

مقدمة:

يتأسس النقد الثقافي بوصفه إعادة قراءة للخطابات الأدبية ثقافياً بالتركيز على القيم غير الأدبية التي يضمها العمل الأدبي منظوراً إلى الجمالي باعتباره قناعاً تضليلياً. متوخياً تفكيك المضمرات الإيديولوجية الثقافية وراء ذلك القناع، وينفتح ثانياً على أفق أوسع على مختلف الممارسات الثقافية باعتبارها نصوصاً دالة وإن بدت خالية من القيمة الجمالية ويجري في هذا المنحى النقدي التسوية بين ما هو رسمي وما هو شعبي أو بين الثقافة العالمية والثقافة الشعبية.

من هنا أحدث النقد الثقافي ضجة كبرى حين ولوجه إلى الساحة النقدية العربية بوصفه خروجاً عن المؤلف والمتعارف في مقاربات النصوص الأدبية. فقد فتح الخطاب النقدي الثقافي الباب على مصراعيه أمام قراءات غير متناهية تتلاقى فيها العلوم الإنسانية رغبة في سبر أغوار المنجزات الأدبية، بعد أن كانت الرؤى النقدية السائدة تدور في فلك الرؤية الجمالية للعمل الأدبي، مما خلق قصوراً ومحدودية في التعاطي معه، وبعداً عن أية محاولة لفهم ما يندثر تحت عباءة الألفاظ والجمال، مما لم تبج به من أسرار تحتاج إلى أدوات أخرى للتعامل معها لإمطة اللثام عنها وبيانها.

وفي مستوى المنهج يرتكز النقد الثقافي على مقاربات النقد الأدبي ذاتها وعلى المنظورات المتعددة التي يطرحها تحليل الخطاب في المستوى التحليلي ويستثمر مفاهيم سوسيولوجية وإعلامية وثقافية متعددة: الإيديولوجيا، الرأسمال الرمزي، الرأسمال الديني وينخرط ضمن مسار الدراسات المقارنة بمدارسها المتعددة لإحداث رؤية مؤسسة معرفياً للعلاقات الأدبية والثقافية بين الحضارات المختلفة، وفي ضوء هذا التأسيس يسعى النقد الثقافي إلى التحكم في العوامل الموضوعية المتعددة التي تنظم عمليات التفاعل بين الثقافات والآداب والكيفيات التي تتم بها ظواهر الاستقبال الأدبي والثقافي وانتقال النظريات والمناهج وكذا الأبعاد الموضوعية والذاتية ومستويات الالتباس في تلك الظواهر.

إلا أنه ورغم اختلاف المناهج النقدية المعاصرة وكثرتها، إلا أنها تُعدّ منارة تحاول أن توجه الكثير من الجوانب المعتمدة من النص الأدبي الإبداعي، هذا النص الذي يتميز بانفتاحه على كلّ القراءات، ويستجيب في كلّ مرة بخصوصياته لكلّ المقاربات والتوجهات.

لهذا فإنّ ما تتغيّأ هذه الورقة البحثية بلوغه عبر القراءة التحليلية هو أن نقف على بواكير النقد الثقافي في الساحة النقدية العربية من خلال القراءات التأويلية الحديثة للمقدمة الطللية في الشعر القديم. ومحاولة الكشف عما يندثر تحت الألفاظ والجمال. وذلك قبل أن يُعرف النقد الثقافي في البيئة العربية. ويمكن القول إذ ذاك: إنّ النقد الثقافي لم يكن مولوداً غريباً، فكثير من مقولاته إن لم تكن توجد في النقد العربي الحديث، فإنّها لا تتنافى معه.

المبحث الأول: النقد الثقافي: الماهية والحدود

إنّ الاختلاف بين المناهج الأخرى والنقد الثقافي يكمن في أنّ الأول نبحت في النصوص الأدبية، عن تلك الجماليات والعلاقات التي تربط النصّ بقارئه ويؤثر فيه في المقام الأول، أمّا النقد الثقافي فهو على النقيض من ذلك يتجاوز المجال إلى البحث عن الفُحج لا الحُسن في الخطاب، وهذا ما يمنحه من أن يكون أوسع من النقد الأدبي -أي أن ينتقل من خطاب الأدب إلى خطاب الثقافة- وإن اعتمد على أدواته وأساليبه وإجراءاته، لأنّه يسعى إلى وضع النصّ تحت مجهر الثقافة وأنساقها المضمرّة، ليتحوّل النصّ هنا من نصّ أدبيّ إلى نصّ ثقافيّ بامتياز.

من هنا سنحاول أن نناقش الأسئلة التالية: ما هو النقد الثقافي؟ وما حدوده؟ وهل القراءات التأويلية لما تضرره المقدمات الاستهلاكية في شعرنا القديم كانت بمثابة الإرهاصات المبشرة بميلاد نوع آخر من النقد العربي؟ وهل هذا يسمح لنا بالقول: إنّ النقد الثقافي نقد عربي قبل أن يكون غربياً؟

المطلب الأول: مفهوم النقد الثقافي

يتمتع النقد الثقافي بحدود زبنيّة حين محاولة القبض على تعريف له، فهو مُنفلت لا تكاد تعثر على تعريف دقيق وواضح لمعناه، ضابط لحدوده، وقد يكون هذا من بين مميّزاته التي تخوّله من أن يكون بديلاً نقدياً يتخلّل مستويات معرفية مختلفة عند محاولة التحليل، وبين التعريفات التي وقفنا عليها، ما يلي:

أولاً: تعريف "عبد الوهاب أبو هاشم":

فهذا الباحث يُعرّف النقد الثقافي بأنّه: «منهج سبقنا إليه الغرب، له أدواته للكشف عن المضمّر النّسقي في العمل الأدبي»¹. فهذا التعريف لم يُقدّم شيئاً يُمكن الاطمئنان إليه، فتأكّده على أنّه منهج لا يُنكره أحد، وبحثه عن المضمرات النّسقية هي غايته وهي أساس وجود هذا المنهج ومُبَرّر بقائه.

إلا أنّ "الغذامي" يرى أنّ النقد الثقافي يتعامل مع النصّ الأدبي «ليس بوصفه نصّاً جمالياً بل بمثابة نسق يُؤدّي وظيفة نسقية ثقافية تضرر ما هو مضاد للمعلن في النصّ الأدبي، ويُقصي الجانب الجمالي ووظيفته الشعريّة لأنّه يُؤدّي إلى (العمى الثقافي) الذي لا يجعلنا نرى أن تكشف (الحيل الثقافية) التي يتوسّم بها لتمرير أنساقه المضمرّة، والنقد الأدبي هو الذي يُعنى بالجمالي والشعريّ في الأداء النصّي»¹.

¹ -أبو هاشم عبد الوهاب، مشروع النقد الثقافي، مقدّمة في ملتقى الإبداع، اللقاء الخامس، يوم الخميس 17 أبريل 2003،

ثانياً: تعريف "بعلي حفناوي":

أمّا هذا الباحث فيعرّف النقد الثقافي بأنّه «نشاط وليس مجالاً معرفياً في ذاته، وهو لا يدور حول الفنّ والأدب فحسب، وإنّما حول دور الثقافة في نظام الأشياء بين الجوانب الجمالية والأنثروبولوجية»². وقد وُصف النقد الثقافي بوصفه «منهجاً مطابقاً للنموذج التفسيري للطّوقس، باعتبار النموذج الطّوقسي أحد تجلّيات تظافر الجهود البحثية للنقد الأدبي وعلم الإنسان. وإنّ إرساء هذا النموذج الطّوقسي وتوسيع دائرة تطبيقه ليشمل الأدب والنقد والثقافة، يُعدّ تقديماً لنوع جديد من النقد هو النقد الثقافي»³.

لذلك تحمل النصوص الأدبية الثقافية في ثناياها أنساقاً مضمرة تتخذ من النصّ الإبداعي وسيلةً للتخفي وعلى هذا الأساس فهي تشكّل أحد الروافد المهمّة والخطيرة في الآن نفسه، في تكريس بعض المظاهر الاجتماعية والفكرية والسلوكية المساهمة بشكل واسع في قضية النمطية الفكرية. وهنا نقف على قدّمه الباحث السعودي 'الغذامي عبد الله'

المطلب الثاني: الطرح الغذامي:

أجمعت الدراسات على أنّ أول من فجر هذه الإشكالية في الساحة النقديّة والأكاديمية العربيّة هو الدكتور 'عبد الله الغذامي' في منجزه (النقد الثقافي، قراءة في الأنساق الثقافية العربية) الصادر عن المركز الثقافي العربي، في الدار البيضاء عام 2000م. وقد جاءت بعده العديد من الدراسات والمقالات بل والأطروحات الجامعية بعضها يتفق معه والآخر يختلف معه ويُعدّل من بعض مقولاته، حيث جاء هذا الطرح، لأنّه رأى:

أولاً: قصور الرؤية في المشهد النقديّ العربيّ:

شنّ 'الغذامي' في كتابه المذكور حملة عنيفة على المشهد النقدي التقليدي الذي يُعنى بالرؤية الجمالية المحدودة، ويغفل جوانب أخرى جديرة بأن تُقرأ ليس في النصّ الأدبي وحده، بل وفي كلّ إنتاج انحرف عن المؤسساتية وخرج عن أسوار مملكة الأدب على حدّ تعبيره، ومن ثمّ كانت الجرأة حين دعا إلى إعلان موت النقد الأدبي وإحلال النقد الثقافي كبديل عنه، أين يُصرّح قائلاً: «ما زلنا ندرّس طلابنا في المدارس والجامعات مادّة البلاغة بعلمومها الثلاثة ولا يعني هذا أنّ ما ندرّسه لهم هو علم لم يعد يصلح لشيء، فلا هو أداة نقديّة صالحة للتوظيف، ولا هو أساس لمعرفة ذوقية أو تبصّر جمالي، وإن كانت قديماً ذائقة إلاّ أنّها لم تعد أساساً للتصوّر ولا للتذوّق، ومن ذا يحتاج إلى رصد الكنايات والجناسات والطباقات في أيّ

² -بعلي حفناوي، مدخل في نظرية النقد الثقافي المقارن، ط1، الدار العربية للعلوم، بيروت، لبنان، 2007، ص

³ -حافظ عزيزة صالح، نحو منهج النقد الثقافي، النقد الثقافي على مشارف القرن، نوفمبر 2000، ص 18.

نص....ولكننا لا نجرؤ على إلغاء مقررات البلاغة، وقد نظن أن إلغائها سيكون بمثابة الانتحار المعرفي أو التأمّر ضدّ التراث أو ضائقة الأمة¹.

ففي هذا المقتبس ليس القصد -في نظر هذا الباحث- إلغاء المنجز النقدي الأدبي، وإنما الهدف هو تحويل الأداة النقدية من أداة في قراءة الجمالي الخالص وتبريره وتسويقه بصرف النظر عن عيوبه النسقية، إلى أداة في نقد الخطاب وكشف أنساقه، وهذا يقتضي إجراء تحويل في المنظومة المصطلحية². وقد أحدثت دراسة 'الغذامي' جدلاً نقدياً؛ لحدائث التوجّه، وخروجه عن أفق التوقع السائد في القراءات النقدية، وعن تصوّر المؤلف عن التراث، إذ أصبح الشعر هو سبب الخراب النسقي، وصناعة الطاغية، وانتقل 'المنتبّي' من كونه المبدع العظيم في تصوّر الجمالي إلى شحاذ عظيم في تصوّر الثقافي، وانكس وصف 'أبي تمام' من الحدائث إلى الرجعية³.

ثانياً: وجوب التحوّل من الأدبية إلى الثقافية:

يُبرّر الناقد -الغذامي- لهذا التحوّل من الأدبية إلى الثقافية بأنّه سيخلّص ما هو أدبي من حدّه المؤسساتي، ويفتح المجال للخطابات الأخرى المنسية والمنفية بعيداً عن مملكة الأدب كأنواع السرد وأنظمة التعبير الأخرى غير التقليدية وغير المؤسساتية التي تكتنز بالطّاقات المجازية والكنائية والترميزية، وتتحرّك ضمن أنساق عميقة وخطيرة، ودورها الكبير في الناس لا يمكن تجاهله بما تحمله في طاقاتها التأثيرية الهائلة التي لا ينافسها فيه أيّ خطاب رسمي مهما بلغ الترويج له أو محاولات ترسيخه⁴. ومن ثمّ فإنّ هذه المقاربات تفتح المجال لما يسمّى بالأدب الشعبي بكافة تمثّلاته، والذي ظلّ ردحاً من الزمن بعيداً عن التناول النقدي، بل والتدوين الكتابي على اعتبار أنّه تراث شفهي. وعلى هذا فقد تغيّرت التراتبية التفاضلية الأجناسية.

فتوسّعت دائرة الاهتمام للأجناس المهملة كالأمثال، وقصصها، والموضوعات المهمّشة، أين أصبحت العبرة بمكمن النسق الثقافي لا بالجنس الأدبي، وأيضاً تذبذبت قيمة التراث الأدبي في تصوّر القراءات الثقافية، إذ أصبح متّهماً في تصوّر بعض القراءات التي جعلت الشعر مثلاً أحد مصادر الخلل النسقي

¹ -أميرة بنت سليمان القفاري، قراءة النقد الثقافي للتراث الأدبي. آفاق التلقي والتأويل في الندوة الدولية الثانية: قراءة التراث الأدبي واللغوي في الدراسات الحديثة، جامعة الملك سعود، (1414-1435)، ص 20.

² -ينظر: حاوي إيليا، إمرو القيس شاعر المرأة والطبيعة، ط1، دار الثقافة، بيروت، لبنان، 1970، ص 76.

³ -ينظر: أميرة بنت سليمان القفاري، قراءة النقد الثقافي للتراث، ص 20.

⁴ -ينظر: الغذامي عبد الله، النقد الثقافي، قراءة في الأنساق الثقافية العربية، ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء،

المغرب، 2000، ص 41.

في تكوين الذات، وفي عيوب الشخصية الثقافية، وشعرنة الذات العربية والخطاب العربي¹. وهنا لابد أن نتوقف عند مجالات النقد الثقافي وأهم الاعتراضات التي وجهت له.

المبحث الثاني: مجالات النقد الثقافي وأهم الانتقادات التي وجهت له:

يقوم النقد الثقافي أو بالمعنى الأصح هناك أربعة مجالات يتحرك فيها، وهي بعيدة عن مألوف أو معهود النقد الأدبي، بل إن كل مجال منها يقابل ما كان معهودا في المقاربات النقدية التقليدية وبيانها التالي:

المطلب الأول: قضايا النقد الثقافي:

- 1- سؤال النسق بديلا عن سؤال النص.
- 2- سؤال المضمرة بديلا عن سؤال الدال.
- 3- سؤال الاستهلاك الجماهيري بديلا عن سؤال النخبة المبدعة.
- 4- سؤال عن حركة التأثير الفعلية، وهل هي للنص الجمالي المؤسساتي، أم لنصوص أخرى لا تعترف بها المؤسسة، ولكنها مع هامشيتها هي المؤثرة فعلا، وهي المشكلة للنساق الثقافية العامة التي لا تسلم منها حتى المؤسسة بشخصها ونصوصها². وعليه فإن الهدف الجمالي في هذا النوع من المقاربات لا وجود له، وصارت المجالات الأربعة السالفة الذكر هي الحدود التي يصلح فيها ويجول هذا النوع الجديد من النقد وقد انبرى كثير ممن تصدى للكتابة في الإشكالية لبيان ما يدور حول هذه الأسئلة، مما لا يمكن التطرق إليه في هذا السياق.

المطلب الثاني: الاعتراضات الموجهة للنقد الثقافي:

لم تسلم نظرية النقد الثقافي -إن صح هذا التوصيف- من سهام النقد، فقد وجهت لها مجموعة من الاعتراضات من أهمها:

أولا: ما يتعلق بصلة النظرية باللسانيات:

- 1- حيث أكد الباحث 'جمعان عبد الكريم' أن نظرية النقد الثقافي لم تقم على اللسانيات بمفهومها التداولي كأحدث تشكّل للنظرية اللسانية في أفعال الكلام وفي لسانيات النص، كما أن جعل النسق كعنصر مضاف إلى عناصر الاتصال في نظرية "رومان جاكسون" في الاتصال اللغوي لا يُبرّر إلحاق هذا النقد

¹ -ينظر: أميرة بنت سليمان القفاري، قراءة النقد الثقافي للتراث العربي، ص 20.

² -ينظر: الغدامي عبد الله، اصطفى عبد النبي، نقد ثقافي أم نقد أدبي، ط1، دار الفكر، دمشق، سوريا، 2004،

الثقافي باللسانيات، لأنّ هذا النسق ليس جزءاً من وظائف اللغة بقدر ما هو أداة منهجية خارجية للتحليل يمكن الوصول إليها عن طريق الوظيفة المرجعية التي تتركز على السياق والوظيفة المعجمية التي تتركز على الشفرة (code)، ولأجل ذلك فإنّ الجانب اللساني ضئيل جداً بخلاف الجانب الجمالي النقدي الذي تمّ استعارة مفاهيمه لمقاربة النسق، وهذا يُباعد بين النقد الثقافي وتحليل الخطاب أو تحليل الخطاب النقدي¹.

2- وفي ذات القضية يُبدي الباحث 'عبد النبي اصطياف' اعتراضه متسائلاً: كيف يُمكن لناقد أن يضيف عنصراً جديداً إلى أنموذج اختطّه عالم لغة مقارن خبير بعدد معتبر من اللغات والتقاليد الأدبية والنقدية والثقافية دون أن يفكر في عقابيل هذه الإضافة، هذا إن كانت الإضافة ممكنة في المقام الأول. إنّ هذه النماذج النظرية لا يمكن أن نظيف إليها ما نشاء ونحذف منها ما نشاء دون أن تستند هذه العملية إلى مسوغات تنطلق من عملية الاتصال ذاتها وليس من مجرد الرغبة في الإضافة التي تكون بالتأكيد غير مقبولة منهجياً².

3- فيما يتعلّق بفكرة النسق فيتساءل 'ميجان الرويلي' وزميله في منجزهما (دليل الناقد الأدبي): كيف أنّ صاحب النظرية لم يوضّح: كيف يجمع النسق بين التاريخية والأزلية في الوقت نفسه؟ فالتاريخ مقيد والأزل غير ذلك وراصداً ثلاث ملاحظات:

أ- التعميمية في قراءة الأنساق التي تحدّث عنها، وفي أنساق محصورة في الجانب السلبي فقط.

ب- محدودية الأمثلة وانحصارها في الأدب والشعر بشكل خاص.

ج- غياب المقارنة الثقافية أو استحضار التجارب الثقافية لمجتمعات مختلفة أو بالأنساق الأخرى التي تخالف النسق الذي رسمه للشعراء الرسميين المنافقين¹.

ثانياً: ما يتعلّق بأنّها فكرة مبتكرة:

إنّ فكرة النسق والنسقية مقتبسة لا مبتكرة، عجز 'الغذامي' عن تعريفها وتوضيحها وقد سبق إليها المفكر الفلسفي والنقدي الجزائري 'مالك بن نبي'. ومن الغريب انعدام أية إشارة إلى ذلك في ما قام به 'الغذامي'.

¹ - ينظر: جمعان عبد الكريم، النقد الثقافي وتحليل الخطاب (2-2)، صحيفة المدينة، في: <https://www.al-madina.com/article/199125>.

² - ينظر: الغذامي عبد الله، اصطياف عبد النبي، نقد ثقافي أم نقد أدبي، ص ص 162-193.

¹ - ينظر: البازغي سعد والرويلي ميجان، دليل الناقد الأدبي، ط3، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2002، ص 310.

المبحث الثالث: القراءات التأويلية الحديثة للمقدمة الطللية وموقعها من مقولات النقد الثقافي:

المطلب الأول: آراء بعض النقاد القدامى حول المقدمة الطللية:

استوقفت المقدمة الطللية في شعرنا القديم الكثير من النقاد في القديم والحديث وقد تساءل هؤلاء عن سبب تصدر هذه المقدمة في القصيدة الجاهلية. ونتج عن ذلك قراءات متعددة عندما نضعها اليوم أمام القراءات الثقافية للنصوص فإنّه يمكن القول: إنّ هذه القراءات لا تبتعد كثيراً عما جاءت به اليوم القراءات الثقافية إن لم تكن تسبقها.

وهنا سنشير لما جاء عند "ابن قتيبة" (ت276هـ) في منجزه (الشعر والشعراء) من تأويل في علّة هذه المقدمة، حيث أكدّ « أنّ مقصد القصيد إنّما ابتدأ فيها بذكر الديار والدمن والآثار، فبكى وشكا، وخاطب الزّرع، واستوقف الرقيق ليجعل ذلك سببا لذكر أهلها الطاعنين عنها، إذ كانت نازلة العمد في الحلول والظعن على خلاف ما كانت عليه نازلة المدر، لانتقالهم عن ماء إلى ماء وانتجاعهم الكلاء، وتتبعهم مساقط الغيث حيث كان. ثمّ وصل ذلك بالنّسب، فشكا شدة الوجد وألم الفراق وفراط الصّباية والشوق....»².

ففي قراءة تحليلية لهذا المقتبس نجد أنّ "ابن قتيبة" يقرّر هنا سطوة التقاليد الفنيّة وسلطانها القويّة تحول بين المبدعين وبين الانحراف عن هذه التراتبية، وليس ذلك فحسب بل والعدل بين ذكر الطلل وبقية الموضوعات الأخرى في القصيدة، إضافة إلى سلطة أخرى هي سلطة المتلقّين الذين قد يشعرون بالملل حال الإكثار، أو التطلع إلى المزيد حال الإقلال. أمّا "ابن رشيق القيرواني" فيؤكدّ هو الآخر هذه السطوة وتلك السلطوية حين ذهب إلى أنّ هذه التراتبية بذكر الديار كانت قديما، لأنّهم أصحاب خيام، يتنقلون من موضع إلى آخر ويتتبعون مواطن الكلاء، فتلك ديارهم، وليست كأبنية الحاضرة، ثمّ يقرّر أنّه لا معنى لذكر الحضري للديار إلّا مجازا، لأنّ الحاضرة لا تسفها الرّياح، ولا يحها المطر، إلّا أن يكون ذلك بعد زمان طويل لا يمكن أن يعيشه أحد من أهل الجبل¹.

² -ابن قتيبة عبد الله، الشعر والشعراء، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر، دار المعارف، القاهرة، 1966، ص 74 وما

بعدها.

¹ -ينظر: ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، ج1، ط5، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار

الجيل، 1981، ص 226.

ويؤكد هذا المعنى الأخير أنّ الشاعر إنّ استطاع أن يعطف إليه القلوب، ويجلب لنشيدته الأسماع في مستهل قصيدته كان ذلك كسبا للجولة الأولى، وتمهيدا لبسط غرضه العام، وليس أقوى عطا للقلوب من حديث القلوب الذي يعبر عنه شعر الوقوف على الأطلال². وهنا نقف على قول عنتره بن شدّاد³:

هَلَّا سَأَلْتُ الْخَيْلَ يَا ابْنَةَ مَالِكٍ إِنَّ كُنْتُ جَاهِلَةً بِمَا لَا تَعْلَمِي.
يُخْبِرُكَ مَنْ شَهِدَ الْوَقِيعَةَ أَنِّي أَغْشَى الْوَغَى وَأَعِفَّ عِنْدَ الْمَغْنَمِ.

فلعلّ الملاحظ أنّ الخطاب النّسقي قد ورث قيم القبيلة التي زرعها الشعر وخلّدها، وتحولت إلى قيم فردية، بل أصبحت قيما نمطية في شخصية الإنسان العربي. وبما أنّ النّسق هو نسق التأثير لا نسق الإقناع فإنّ الذات العربية قد تمّ تدجينها حتّى تقع تحت تأثير الانفعالات المتواصلة استجابة للعواطف والأهواء أكثر من الاستجابة للتفكير المنطقي والعقلي.

المطلب الثاني: رأي نقاد العصر الحديث:

الفرع الأول: رأي 'محمد زغلول عبد السلام':

وقد التقط هذه القراءة ناقد حديث هو 'محمد زغلول سلام' وأضاف إليها حيث يرى أنّ المقدمة الطللية: «سنة فنية استنتها بعض الشعراء ربّما ليمزجوا بين ذلك اللون المحبّب إلى النفوس عند عرب الجزيرة وما يريدون الحديث فيه من موضوعات للترويح أو حتّى العاطفة وشحنّ الشاعرية، فهو كالترنيمه الحلوة في افتتاحية الكلام تستهوي السامعين أيضا، وتحبّبهم إلى سماع القصيدة الطويلة فلا يصرفهم الملل»¹. ولعلّ مردّد هذا التأويل كما نرى نفسي يتّصل بالمرسل والمتلقّي، وهذا مسبوق كما رأينا بما قال به 'ابن قتيبة' خاصّة مراعاة حال المتلقّي.

الفرع الثاني: رأي 'محمد زكي العشماوي' و'عزالدين إسماعيل' وفكرة 'الصّراع بين الأضداد':

وهنا نقف على من فسّروا تصدّر هذه المقدمة الطللية في الشعر القديم تفسيراً نفسياً وفلسفياً الباحث 'محمد زكي العشماوي'، حيث يرى إنّ هذه المقدمة ترمز إلى الإحساس بالصّراع بين الحياة والموت، وذلك من خلال مجموعة من الصّور المتتابعة: صور العدم التي ترمز إليها الدّيار الدّارسة تقف جنباً إلى جنب مع صورة الحياة النّابضة المزهرة التي حوّلت إليها الدّار بعد أن سكنها الوحوش وصورة الحزن الذي خيم على الشاعر عندما أحسّ بمعاني الزّوال والفرق والعدم، إلى جانب صور أخرى للشاعر وقد تملكته

² -ينظر: حسن عزّة، شعر الوقوف على الأطلال، دمشق، 1968، ص 117.

³ -ينظر: الزوزني، شرح المعلقات العشر، دار مكتبة الحياة، المجلّد الأول، ط1، (د.ت)، ص 35.

¹ -زغلول محمد سلام، مدخل إلى الشعر الجاهلي، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1990، ص 146.

العزيمة ودفعته إلى مجابهة الواقع في كثير من الحزم والقوة وإرادة البقاء والانتصار على الحياة². وهنا نقف على قول الشاعر "طرفة بن العبد"³ متغنياً بأطلال حبيبته الرّاحلة 'خولة':

لخولة أطلالٌ ببرقد ثمّمد تلّوح كباقي الوشم في ظاهر اليد.

أمّا الباحث 'عزالدين إسماعيل' فيفسّر هذا الصّراع في ضوء السيكلولوجية الفرويدية، حيث يرى أنّ المقدمة الطللية انعكاس للصّراع الأبدي في نفس الإنسان وفي الحياة من حوله، بين 'إبروس' و'ثانانوس'، أي بين حبّ الحياة وغريزة الموت التي تعمل في صمت.

وعلى هذا النحو يُعدّ الحبّ ضماناً للحياة بما يعرف بغريزة حفظ الذات وغريزة حفظ النوع، ولذلك كان الفراق الذي يتعرّض له الشعراء تهديداً مباشراً لذلك الحبّ، ينتهي بروح الشاعر إلى الجذب والإفقار كما يفعل الخراب في تلك البقاع التي كانت من قبل تعجّ بالحياة. وقد مضى يُعلّل هذا الارتباط ويعزّوه إلى التعبير عن أزمة الإنسان في ذلك العصر وموقفه من الكون وخوفه من المجهول¹. وهنا نتوقّف عند:

المطلب الثالث: المشكلات الوجودية الكبرى:

الفرع الأول: رأي نقاد آخرين حول المقدمة في الشعر القديم:

يرى نقاد آخرون أنّ المقدمة الطللية في الشعر القديم تعبير عن المشكلات الوجودية الكبرى التي واجهت الشاعر القديم ولم يجد لها حلاً، ومن أولى هذه القراءات جاءت قراءة المستشرق 'فالتر براونه' التي تناقلتها كثير من البحوث وتخلص إلى أنّ هذه المقدمات تعبّر عن مشكلة وجودية كبرى تتمثّل في اختبار القضاء والفناء والتناهي، وهذا ما علّل به هذا المستشرق ما يلاحظ في أشعار الجاهليين من تناقض يُقيمه الشاعر بين الحزن والفرح، واللذة والألم، والموت والحياة، والفناء والبقاء².

أمّا الباحث 'إيليا حاوي' فيرى أنّ شاعراً يستهل مطالعه بالبكاء كامرئ القيس مثلاً فإنّه بذلك يُجسد الآلام والأحزان المبرحة، والمعروف أنّه لا شيء يستدّر الدّمع من مآقي الرجل إلّا الموت أو ما يشبهه أو ما يعادله بحس الفجيعة والندم.

إنّه يتفجّع من خلال الحجارة والدّمنة على شيء أبعد منها، إنّه يتفجّع على واقع إنساني ترمز إليه ولعلّ بكاء الشاعر وتحسّره هنا تولّد من التناقض بين ما يطلبه الشاعر ويتوق إليه وهو ما يُجبر عليه

² -ينظر: العشماوي محمد زكي، قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث، دار المعرفة، الإسكندرية، 1990، ص 146.

³ -ينظر: الزوزني، شرحالمعلقات العشر، ص 40.

¹ -ينظر: جودة عاطف، النصّ الشعري ومشكلات التفسير، ط1، الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان، القاهرة، 1996،

ص 121.

² -ينظر: المرجع نفسه، ص 122.

ويقع فيه³. ويؤكد الناقد 'يوسف اليوسف' «أنّ الموقف الطللي يمثل ترجمة لا شعورية للرغبة في الخلاص من ظرف حضاري متهدم والتحول إلى مرحلة حضارية أرقى»⁴.
ويُجمع 'عبد بدوي' في قراءته بين التأويل القديم الذي جاء عند 'ابن قتيبة' و'ابن رشيق'، وبين ما قال به بعض المحدثين، حين يعزو ظاهرة الوقوف على الطلل إلى سببين: الأول ظاهرة التقليد والتمادي فيه، والثاني: الإحساس بالغربة والاعتراب ويرجع الاعتراب إلى أنّ الحياة لم تكن سهلة قبل الإسلام وبعده، الأمر الذي جعل العربي يملّ من الغربة والاعتراب، ولا يستطيع لهما دفعا ومن ثمّ كان هذا الغناء الحزين¹.

الفرع الثاني: قدسية الطقوس الميثولوجية:

وهنا قد أرجع مجموعة من الباحثين هذا الوقوف إلى طقوس ميثولوجية، ومن بين هؤلاء الباحث 'مصطفى ناصف' الذي أكد من جهته أنّ الوقوف على الأطلال ضرب من الطقوس أو الشعائر التي يؤدّيها المجتمع، وتصدر عن عقل جماعي لا عن عقل فردي أو حالة ذاتية، وينبع من الأطلال كغيره من فنون الشعر العربي في العصر الجاهلي من التزام اجتماعي يأتي من ارتباط غامض بحاجات المجتمع العليا². وهنا نقف عند قول الشاعر "امرئ القيس" في مستهلّ معلقته³:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل
يسقط اللوى بين الدخول فحومل.

حيث تتحوّل الديار إلى عالم مجاف للشاعر بسبب صمتها وعدم انفتاحها زمنيا على الشاعر، وهذا ما أدّى إلى النظر إلى الزمان في اللحظة الطللية من منظار الريب والإحباط، فتحوّل في كثير من الأحيان إلى منظار تشاؤمي ملفوف بمعاني التذمر والبكاء.

أمّا الباحث 'علي البطل' فيفسّر تصدر هذه المقدمة في الشعر القديم بأنّها تمثل بقايا السحر التشاكلي أو سحر المحاكاة، تظهر من خلاله موقف الطلل في صور متعدّدة لتتحوّل وقفة الشاعر أمام الطلل إلى طقس استمطار له؛ ليسقى ولكي يعود إلى أهله⁴.

³ -ينظر: حاوي إيليا، امرؤ القيس شاعر المرأة والطبيعة، ص 96.

⁴ -اليوسف يوسف، مقالات في الشعر الجاهلي، ط3، دار الحقائق، بيروت، 1983، ص 19.

¹ -ينظر: بدوي عبد، وجهة نظر حول قضيتي الطلل والتشبيب في مقدّمة القصيدة، مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مج1، ع4، 1981، ص 29.

² -ينظر: ناصف مصطفى، قراءة ثانية لشعرنا القديم، ط2، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1981، ص 51.

³ -ينظر: الزوزني، شرح المعلقات العشر، ص 45.

⁴ -ينظر: علي البطل، الصّورة في الشعر الجاهلي، ط1، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، 1981، ص 231.

أما الطرح الذي ذهب إليه الباحث 'عاطف جودة نصر' فهو الإفادة من القراءات السابقة ولم يرفضها، بل أَلَفَ بينها، وصاغ تأويلاً أكد فيه: « أنَّ الطَّلَّ في الشعر القديم ليس بمعزل عن الطبيعة بما يوحي بأنَّ له ارتباطات موضوعية في سياق كوني، وهو شفرة توحد بين الظاهرة المادية والتقلبات العاطفية، وتمزج الفردي بالجماعي، إنَّه قراءة أمية في صحف المكان الذي تعرضه هشاشته للعلوم، وهو تجسّد مادي للذكريات التي تنعش الارتباطات التاريخية الموقوتة»¹.

الخاتمة:

وفي ختام هذه الدراسة يُمكن القول: إنَّها عدّة قراءات تأويلية حول المقدمة الطللية في شعرنا الجاهلي وقف أصحابها أمام ألفاظها وجملها محاولين استنتاجها لمعرفة ما اندثر تحتها من دلالات وكشف المخبوء، لهذا يُمكن أن نوجز بعض النتائج التي توصلنا إليها فكان من أهمّها التّالي:

*- أحدث النقد الثقافي ضجةً كبرى حين وُلّجه إلى السّاحة النّقديّة العربيّة بوصفه خروجاً على المألوف والمتعارف في مقاربات النّصوص الأدبيّة، فقد فتح الباب على مصراعيه أمام قراءات لا متناهية تتلاقى فيها العلوم الإنسانيّة.

*- يسعى النقد الثقافي من جهته إلى التحكم في العوامل الموضوعيّة المتعدّدة التي تُنظّم عمليات التفاعل بين الثقافات والآداب، فهو مناورة تحاول أن تكشف الكثير من الجوانب المعتمّة من النصّ الأدبي الإبداعي الذي يميّز بانفتاحه على كلّ القراءات.

*- ما قام به الباحث والنّاقد السعودي 'عبد الله الغدامي' كان لا يعني إلغاء المنجز النّقدي البلاغي، وإنّما الهدف هو تحويل الأداة النّقديّة من أداة في قراءة الجمالي الخالص وتبريره وتسويقه بغض النّظر عن عيوبه النّسقية إلى أداة في نقد الخطاب وكشف أنساقه.

*- إجمالاً يُمكن صياغة ما سلف ذكره في بعض عناوين رئيسة لا تتعارض مع فكرة الأنساق التي أفرزتها نظرية النقد الثقافي، بل تنبثق منها عناوين فرعيّات يصحّ أن يُكوّن كلّ واحد منها نسقاً ناطقاً بحمولات أبيات هذه المقدّمة، وهي كما رأينا:

- التعبير عن المشكلات الوجودية الكبرى.

- الصّراع بين الحياة والموت. وهي تُشكّل ثنائيات ضديّة.

- قدسية الطّفوس الميثولوجية.

¹ - ينظر: عاطف جودة نصر، النصّ الشعري ومشكلات التفسير، ص 12.

آفاق يُمكن لهذه الدراسة أن تفتحها:

إنّ فكرة التّسق والتّسقية مُقتبسة لا مُبتكرة، فقد فشِل الباحث والناقد السعودي 'عبدالله الغزامي' في وضع تعريف محدّد وواضح يرسم الخطوط العريضة لطرحه الجديد هذا بالرّغم ممّا بذله من جهود، إلّا أنّ المفكّر والناقد الجزائري 'مالك بن نبي' قد سبقه في الإشارة إلى هذا الموضوع. وانطلاقاً منه لا بدّ من العودة إلى هذه الفكرة قصد مناقشتها وإثرائها عبر مختلف الملتقيات والندوات العلمية.

قائمة المصادر والمراجع:

أولاً: الكتب

- 1- بعلي حفناوي، مدخل في نظرية النقد الثقافي المقارن، ط1، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان، 2007.
- 2- البازغي سعد والزويلي ميجان، دليل الناقد الأدبي، ط3، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2002.
- 3- البطل علي، الصّورة في الشعر العربي، ط2، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، 1981.
- 4- حاوي إيليا، إمروّ القيس شاعر المرأة والطبيعة، ط1، دار الثقافة، بيروت، 1970.
- 5- حافظ عزيزة صالح، نحو منهج النقد الثقافي، النقد الثقافي على مشارف القرن، نوفمبر 2000.
- 6- خليل سمير، النقد الثقافي، من النصّ إلى الخطاب، ط1، دار الجواهري، بيروت، لبنان، 2012.
- 7- ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر ونقده وآدابه، ط5، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، 1981.
- 8- الزّوزني، شرح المعلّقات العشر، دار مكتبة الحياة، المجلّد الأول، ط1، (د.ت.).
- 9- سلام محمد زغلول، مدخل إلى الشعر الجاهلي، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1990.
- 10- عاطف جودة نصر، النصّ الشعري ومشكلات التفسير، ط1، الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان، القاهرة، 1996.
- 11- عزّة حسن، شعر الوقوف على الأطلال، دمشق، 1968.
- 12- العشماوي محمد زكي، قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1990.
- 12- الغزامي عبد الله، النقد الثقافي، قراءة في الأنساق الثقافية العربية، ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2000.

- 13- الغزامي عبد الله، اصطيف عبد النبي، نقد ثقافي أم نقد أدبي، ط1، دار الفكر، دمشق، سوريا، 2004.
- 14- ابن قتيبة عبد الله، الشعر والشعراء، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر، دار المعارف، القاهرة، 1966.
- 15- ناصف مصطفى، قراءة ثانية لشعرنا القديم، ط2، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1981.
- 16- اليوسف يوسف، مقالات في الشعر الجاهلي، ط3، دار الحقائق، بيروت، 1983.

ثانيا: المقالات

- 1- بدوي عبده، وجهة نظر حول قضيتي الطلل والتشبيب في مقدمة القصيدة، مجلة فصول، الهيئة العامة للكتاب، مج1، ع4، 1991.

ثالثا: أشغال ملتقيات

- 1- أميرة بنت سليمان القفاري، قراءة النقد الثقافي للتراث الأدبي، آفاق التلقي والتأويل في الندوة الثانية: قراءة التراث الأدبي واللغوي في الدراسات الحديثة، جامعة الملك سعود، (1414-1435).
- 2- أبو هاشم عبد الوهاب، مشروع النقد الثقافي، من النص إلى الخطاب، ط1، اللقاء الخامس، يوم الخميس 17 أبريل 2003.

رابعا: مواقع إلكترونية

- 1- جمعان عبد الكريم، النقد الثقافي وتحليل الخطاب، (2-2)، صحيفة المدينة، في <https://www.al-madina.com/article/199125>.